مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة1 المجلد (22)، العدد (02)، (ديسمبر، 2021م)، ص 699- 710
ISSN 1111-5149 / E.ISSN 2430-2588

الخطاب البيوإتيقي عند "دانيال كالاهان"

من أزمة الثوابت إلى محاولات التأسيس العلماني

The Bioethics Discourse of "*Daniel Callahan* "
From the Crisis of the Constants to the Attempts at Secular Establishment

سفيان عمران* [1]، جامعة سطيف2 s.amrane@univ-setif2.dz
التوفيق بن ولهة [2]، جامعة سطيف2، toufik34200@gmail.com

تاريخ الاستلام	تاريخ القبول
2021-03-08	2021-11-22

ملخّص

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تبيين معالم العلاقة بين "البيواتيقا" والمطلق (المقدس، المعتقد، السلطة) وسعي الكثير من الفكرين إلى إقامتها على الفصل، من بينهم الفيلسوف الأمريكي "دانيال كالاهان"، إذ سيتم إجراء حفر أركيولوجي من أجل استشكال أصول هذه العلاقة، ثم منهج تحليلي لتبيين آثارها الإيجابية والسلبية لتُعرض على النقد، وذلك لتحرير الخطاب البيواتيقي من كل ممارسة يمكن أن تضعه في رواق ضيق وتعيق تطوّره، وقد توصلت الدراسة إلى ضرورة تخليص هذا الخطاب من كل معتقد أو سلطة أو مقدس، وانفتاحه على مجالات متعددة، ليتميز بطابع عقلاني شمولي، مما يسمح لها بمعالجة القضايا الشائكة التي خلفتها منجزات العلم.

الكلمات المفتاحية: العَلمانية؛ البيواتيقا؛ الطب والبيولوجيا؛ القيم؛ الأخلاق.

Abstract

The present research paper aims to define the features of the relationship between "Bioethics" and the absolute (sacred, belief, authority), and the efforts that have been made by many thinkers to get the separation. One of them is the American philosopher "Daniel Callahan". An archaeological excavation will be carried out in order to find out the origins of this relationship. Then an analytical approach will be used to demonstrate its positive and negative effects, thus to present it to criticism, in order to liberate the biotic discourse from every practice that could place it in a narrow corridor and impede its development. The study concluded that there is a necessity of liberating this discourse from every belief, authority or sacredness. Moreover, it should be open to multiple areas to be characterized by a rational, comprehensive nature, which allows it to address the thorny issues left by the achievements of science.

Keywords: Secularism; Bioethics; Medicine and Biology; values; Ethics

* المؤلف المرسل

مقدّمة

في النصف الثاني من القرن العشرين، القرن الذ ي غيّر وجه العالم؛ دخلت البشرية حقبة جديدة تغيّرت معها الكثير من المفاهيم، بفعل التطور الكبير الذي عرفته التكنولوجيا الحيوية Biotechnology التي استجلبت معها ثورة علمية عميقة في ميدان الطب والبيولوجيا يأتي عمقها من تعاملها المباشر مع الكائن الحي، وبخاصة الإنسان، متأرجحة بين الإعجاب والارتياب، هذا الأخير الذي اتجه مباشرة إلى منظومة القيم لدى الإنسان التي لم تتعرض إلى التغيير فقط، بل حتى الإساءة مما عجّل بظهور خطاب أخلاقي جديد (البيواتيقا Bioethics) الذي حاول مسايرة التقدم العلمي والتكنولوجي، ومواجهة مشكلات العلم، من أجل بناء جسر نحو المستقبل، جسر قوي بما فيه الكفاية لمعالجة مشكلات الإنسان.

وقد انطلق هذا الخطاب من مرتكزات دينية ارتبطت بالأخلاق الطبية الكلاسيكية، تحت تعاليم القسم "الأبقراطي"، كما احتضنتها الكنيسة الكاثوليكية، فتميز باحترام الثوابت، وضمه رجال الدين والكنيسة، مع إعطائهم مكانة مرموقة، وقد دعا الكثير من المفكرين إلى التخلص من هذه التوجهات نظرا لصعوبة مسايرتها التسارع الكبير الذي تتحرك به التقنية، فاتجهت الأصوات الفلسفية إلى المناداة بضرورة إبعاد الخطاب البيواتيقي عن كل ممارسة مرتبطة بالثابت والمطلق، وفي الدرجة الأولى الدين، بحثا عن علمنته، وإعطائه طابعا شموليا، ليشتمل الحوار على مزايا عقلانية إنسانية، فاحتدم النقاش، ومن المفكرين البارزين في هذا السياق نجد الفيلسوف الأمريكي عضو الأكاديمية الطبية الأمريكية " دانيال كالاهان Daniel Callahan (1930-2019)الذي دعا إلى ضرورة ترك الدين جانبا في كل ممارسة بيواتيقية ممّا ولّد إشكالية على قدر كبير من العمق والتعقيد:

كيف يمكن للخطاب البيواتيقي أن يكون علمانيا؟

هذه الإشكالية على ترامي حدودها تطرح مجموعة من المشكلات والأسئلة: كيف استطاع" كالاهان" أن يؤسس لعلمانية الخطاب البيواتيقي؟ هل فعلا إبعاد الدين عن البيواتيقا يساهم في تطورها؟ هل شمولية الخطاب البيواتيقي يقتضيه تجاوز الثوابت والمطلقيات؟ هل تعني العلمانية عدم مشاركة رجال الدين في الحوار البيواتيقي؟

أولا- البيواتيقا ومحاولات بناء جسر نحو المستقبل

مع التقدم العلمي والتكنولوجي الذي حدث في ميدان التكنولوجيا الحيوية المرتبطة بالطب والبيولوجيا، تأكدت حاجة البشرية إلى فكر أخلاقي جديد، من أجل مسايرة هذا التقدم الذي اتضح أنّه لم يتوقف عند حدود فهم الحياة الإنسانية وحلّ مشكلاتها فقط، بل سعى إلى قلبها، وتغيير الكثير من المفاهيم والتصورات، وبخاصة منظومة القيم المتعلقة بالكرامة والحرية ومصير الإنسان وقدسية الحياة ومفاهيم الأمومة والأبوة والوالدية، فضلا عن بداية

الحياة ونهايتها، وغيرها من المواضيع الأخرى التي اقتضت ظهور فكر أخلاقي جديد، هو الآخر أراد أن يكون حيويا من خلال مصطلح" الأخلاق الحيوية" (البيواتيقا).

ومصـــطلح " البيواتيقا" ينســـب إبداعا وابتكارا إلى طبيب الســـرطان الأمريكي " فان رونسلر بوتر" Van Rensselaer Potter (1911-2001) في مقال له بعنوان " البيواتيقا، علم البقاء على قيد الحياة" science of survivalBioethics، ويبدو أنه من خلال هذا العنوان بحث عن حكمة جديدة تقود البشـــرية إلى تحقيق البقاء في ظل التقدم العلمي الكبير الذي صـــار يهددها في شـــتى فروعها المتنوعة، لهذا عندما أعاد نشـــر هذا الموضـــوع في كتاب كامل بعنوان " البيواتيقا، جسر نحو المستقبل" Bioethics ,Bridge To The Future أكّد على حاجة البشـــرية إلى حكمة جديدة، أو بحوث عقلانية، تســـتخدم مختلف المعارف لتتمكن من الحفاظ على بقائها، نظرا للتهديدات الكبيرة التي تصدر عن التقنية، فلا بد من تجاوز مشكلات العلم، والعودة إلى الأخلاق في صـــورتهـا الحيويـة، لتعزيز منظومـة القيم ودمجهـا مع المعـارف البيولوجية في تخصـص " "البيواتيقا"؛ يقول :" يجب أن يكون علم البقاء على قيد الحياة أكثر من كونه علما وحده، وفي هذا اقترح مصطلح الأخلاق الحيوية، من أجل تحقيق حكمة جديدة، تلك الحكمة التي تشـــتد إليها الحاجة دائما، ويمكن تحقيقها من خلال الجمع بين حقلين هامين، هما المعرفة البيولوجية والقيم الإنسانية" .(Potter, 1971, p. 2)

اعتبارا لهذا سينحت مصطلح " البيواتيقا" -حسب بوتر- في ظلّ المشكلات والأزمات اليومية متطلّبا نوعا من المزج بين العلوم الاجتماعية والبيولوجيا والإنســـانيات، بين ما هو كائن وبين ما ينبغي أن يكون، لنكون في حاجة إلى عالم أحياء يحترم هشـاشـة الحياة، ويقدر قيمتها، علم أحياء يمكنه أن يقول لنا ما نســـتطيع فعله، وما يجب علينا أن نفعله في ســـبيل تحقيق البقاء، وما لا يمكننا فعله إذ كنا نأمل في الحفاظ على نوعية الحياة ,1971 ,Potter) .p. 2)

وعلى هذا الأساس، ستكون الميزة الهامة للبيواتيقا ؛ هي توجهها نحو المستقبل، فهي جسر هام بين الحاضر والمستقبل؛ لأنه من أجل بقاء الجنس البشري يجب التركيز على المصالح والأهداف طويلة المدى، ليؤكد على ضرورة تطوير رؤى إيجابية من أجل المستقبل، ولا يمكن حصول ذلك إلاّ من خلال استعمال أساليب علمية، واستخدام المعارف لتحديد ما هو ممكن وما هو محتمل، فتحديد الاحتمالات المســـتقبلية يتطلب الجمع بين المعرفة وأســـاليب العلوم والإنســـانيات، ومنه ســـيكون الهدف النهائي للبيواتيقا هو بقاء الإنســـان على المدى الطويل(Have, 2016, p. 25)

إنّ الخطاب البيواتيقي في ارتباطه بالمســـتقبل، يؤكد على الهاجس الكبير الذي تركه التقدم العلمي بشـتى مجالاته في الحقل التداولي الذي رسـم اسـتشـكالا قويا ممّا سـتخلفه التقنية من آثار سلبية على الإنسان الذي صار مهددا في حياته، واستجلب هذا التهديد خطرا

كبيرا على مختلف القيم، التي كانت تحفظ للإنسان قديما مكانته، كأرقى الكائنات الحية، لهذا فالغاية من هذا الجسر هي حفظ البقاء، ومعه تحفظ الكثير من القيم، ولكي لا يكون هذا الجسر هشا، لابد من استخدام مختلف المعارف المتعلقة بالعلوم والإنسانيات لتحقيق الهدف المنشود.

ومن خلال استخدام مختلف المعارف، ستكون الميزة الأخرى للبيواتيقا حسب "بوتر" أنّها حقل متعدد الاختصاصات؛ انطلاقا من أنّ مشاكل الجنس البشري، متعددة ومتنوعة، يتطلب معالجتها الجمع بين فئات المعرفة من تخصصات مختلفة، مثل البيولوجيا والعلوم الاجتماعية والإنسانيات مؤكّدا على أن هذه الفئات عليها تبادل الأفكار الجديدة، وفحص الأفكار القديمة؛ لأن هذه العملية من شأنها أن تولّد الحكمة لتحقيق الهدف المستقبلي المتمثل في بقاء الإنسان، ولن يتم توليد الأفكار والحكمة إلا إذا تمكنا من سدّ الهوة السحيقة بين العلم والأخلاق(Have, 2016, pp. 25-26)

لهذا تجمع " البيواتيقا" بين حقلين هامين، حقل الأخلاق كعلم معياري تهتم بما ينبغي أن يكون عليه السلوك، وحقل العلم المتمثل في البيولوجيا التي تهتم بما هو كائن، واصفا مختلف التطورات التي حدثت في سياق تسارع التقدم العلمي والتكنولوجي، ليبحث عن فلسفة أخلاق جديدة، تتماشى مع عنف التقنية، ومع التدفق السريع للمعارف، في عصر سيطرت فيه التكنولوجيا الحيوية، واعتلت علوم الطب والبيولوجيا عرش العلوم.

أمّا عن المواضيع التي تشتغل عليها " البيواتيقا"، فقد ذكر " بوتر" في مقدمة كتابه الثاني" البيواتيقا الشاملة" Global Bioethics أن هذا المصطلح ارتبط في بداية ظهوره بأخلاقيات الطب ليشتغل حصريا على مجموعة المواضيع المتعلقة بالممارسات الطبية، وذكر على سبيل المثال: زراعة ونقل الأعضاء Organ Transplants والإجهاض Abortion ، والتعقيم Sterilization،و منع الحمل Artificial Contraception،و العلاج الكيميائي Chemotherapy، والموافقة المستنيرة من طرف المريض Informed Consent by the patient حرية الاختيار فيما يخص الإنجاب أو الإجهاض Freedom of choice in procreation or abortion والإخصاب في المختبر Fertilization in Vitro والحمل البديل Surrogate Pregnancy، ومستقبل تطورات مختلف أبحاث الهندسة الوراثية Genetic Engineering، ثم اقترح بعد ذلك تطوير هذا الاختصاص ليرتبط بمشكلات البيئة، التي يبدو أن الكثير من الباحثين قد نسيها رغم تأثيرها على بقاء الإنسان وتطوير حياته (Potter, Global Bioethics ., 1988, p. 1)

لهذا أكّد " غي دوران" Guy Durand أن هناك مواضيع مركزية تشتغل عليها " البيواتيقا" على غرار: الموت الرحيم Euthanasie وتكثيف العلاج، و الإنعاش، و إبراز الحقيقة للمرضى، وكذلك مسألة الحق في الحياة والموت، إضافة إلى التشخيص قبل الولادة،

والإجهاض، و تعقيم المعاقين، وتحسين النسلEugenices ، والتجارب على الإنسان، وعلى الجنين، وأطفال الأنابيب In Vitro Fertilisation الإخصاب الصناعي خارج وداخل لرحم، و الأمهات البديلاتSurrogate Mother، و بنوك الحيوانات المنوية، وأضاف أنّ هناك من يوسع مجال "البيوإتيقا" ليشمل مواضيع أخرى التي اعتبرها هامشية مثل تغيير الجنس، و زراعة القلب، ومنع الحمل، بل وأكثر من ذلك هناك من يربطها بالأسلحة البيولوجية، و التعذيب والتلوث وغيرها(دوران، 2015، الصفحات 58-59).

ومهما يكن، فإن بناء جسر نحو المستقبل يقتضي مراقبة مختلف الممارسات التي تهدد بقاء الإنسان من جهة، ومن جهة أخرى تثير على مستوى القيم الإنسانية أزمة، خاصة في العصر الراهن الذي عرف فيه الطب والبيولوجيا تقدما معرفيا وتقنيا كبيرا، جعل الباحثين يستعجلون عمليات التجديد على المستوى الأخلاقي، من أجل مساءلة الثورة "البيوتكنولوجية" عما خلفته وما ستخلفه من نتائج تهدد الإنسان من حيث هو إنسان في جوانب مختلفة من كيانه.

ثانيا-استشكالات عَلمانية داخل الخطاب البيوإتيقي

في حفر معرفي عميق، عن تجلّيات الخطاب البيوإتيقي في العصر الكلاسيكي، وُجد أنّه اِرتبط بصلة وثيقة مع الأخلاق الطبية في الحضارة اليونانية، وبالتحديد " قسم أبقراط" الذي جاء فيه اختصارا:" أقسم بأبولو Apollo الحكيم، وبأسكيلبيولس Aescuulappuis وهايجيا Hygeia وباناسيا Panacea، وأشهد كلّ الأرباب والربّات على أن أبقى على قدر استطاعتي على القسم الآتي: أن أعتز أشد الاعتزاز بمن علمني هذا الفن مثلما أعتز بوالدي...وأن ّألقن علمي لأبنائي وأبناء أستاذي الذي علمني قواعد المهنة...وأن أصف الدواء الناجع لمرضاي حسب قدرتي ولا أضر أحدا، وليس من أجل إرضاء أحد أصف دواء مميتا، ولا أعطي امرأة لبويا بسبب الإجهاض، وإنما أحافظ على طهارة حياتي ومهنتي..."(زيدان، 1993، صفحة 165)

بموجب ما قدمه الطبيب للآلهة والأرباب والربّات من وعود مقدسة، سيحمل القسم الأبقراطي صبغة دينية امتدت جذورها إلى عصور لاحقة، حيث عملت الكثير من الديانات السماوية على ترسيخها ،من أبرزها المسيحية؛ " فقد ضرب التراث الأبقراطي بجذور أعمق في المسيحية، التي أدمجت هذا التراث الفكري المتراكم، مع العقيدة والأخلاقيات المسيحية، فقد أعطت الطبيب نوعا من السلطة الأبوية في علاقته مع مرضاه، على أساس أنه أدرى بمصلحة المرضى خاصة الفقراء منهم"(البقصمي، 1993، صفحة 40) لترتبط الأخلاق الطبية التي أثرت بشكل عميق في " البيوإتيقا" بالدين ،وذلك من خلال السلطة الأبوية للطبيب والتي أعطت" للطبيب وصفا يشبه الملائكة والقديسين"(البقصمي، 1993، صفحة 40).

لكن هذا الوصف يبدو أنه سيختفي في النصف الثاني من القرن العشرين، بدءا بجهود الأكاديمي واللاّهوتي الأمريكي " جوزيف فليتشر (1905-1991) Joseph Fletcher " من خلال كتابه " الطب والأخلاق Medicine and Morals الذي نشره سنة 1954، ويعد هذا العمل مظهرا هاما من مظاهر الاهتمام المتزايد، بعد الحرب العالمية الثانية بالأخلاقيات الطبية، والذي انتهى به إلى التمرد على السلطة الأبوية للطبيب، التي تعد من التقليد الأبقراطي، ثم ترسّخ بعد ذلك في المسيحية خاصة الكاثوليكية، وبهذا تحدّى المطالب الدينية لتأسيس الأخلاق الطبية على الممارسة المطلقة، وانطلق من القوانين الطبيعية، مركزا على فكرة الحرية، التي تؤكد على استقلالية المريض، ومنه الانطلاق من حقوق المرضى، لا حقوق الأطباء، وقد أثار عمل " فليتشر" الكثير من المعضلات الجديدة التي عجزت الأخلاق الكلاسيكية عن معالجتها، مثل التعقيم و الانجاب و الموت الرحيم وغيرها، وهو ما ساهم في ظهور حقبة جديدة أرّخت لظهور الخطاب "البيواتيقي" بعيدا عن المقاربات الدينية(Langavant, 2001, p. 23)، هذا التأريخ بمثابة بداية لإبعاد الخطاب البيواتيقي عن الممارسات الدينية، وإضفاء الطابع العلماني عليه، والذي من شأنه أن يعطي نوعا من الحرية الأخلاقية الذي يبعده عن كل سلطة، ليتمكن من التطور، تحت مساهمة الكثير من شرائح المجتمع على اختلاف توجهاتهم.

وتجدر الإشارة إلى أن إضفاء الطابع العلماني على " البيواتيقا" يعني جعله خطابا عقلانيا إنسانيا، وهذا لا يعني عدم مشاركة رجال الدين في هذا الحقل المتعدد التخصصات، بل إنه كما يقول " غي دوران":" لا تعني المقاربة العلمانية أن المتدينين أو المؤمنين لا يحق لهم إبداء آرائهم وأنهم لا صوت لهم، وأن عليهم وضع إيمانهم على الرف، كما لا يطلب للمواطنين الآخرين في المقابل أن يضعوا مسلماتهم الأيديولوجية بين أقواس، إنما تقتضي المقاربة العلمانية عدم وضع معتقداتهم في الواجهة، وعدم جعل إيمانهم منطلقا لمبرراتهم، فالحوار يقع على المستوى العقلاني والإنساني"(دوران، 2015، الصفحات 47-48)

بعد هذا اتخذت " البيواتيقا" صورة علمانية، في فضاء محايد، لا ينتصر لتوجه ولا عقيدة محادثة متعددة ومتنوعة، ذلك ما يعبر عنه تعدد الاختصاصات في هذا الحقل الجديد، وستقدم إجابات تليق بالجميع، إنها تبحث عن فصل الدنيوي عن الديني، مقدمة للبشر "بيواتيقا" لهم في صورتهم البشرية، وإعطاء معنى لصورة القيم عندهم، معنى للإنجاب والولادة والحياة، معنى للصحة والمرض، للمعاناة والألم وغيرها، إنها تبحث عن الإجماع بين بني البشر(جديدي، 2020، الصفحات 101-102-103).

وفي الحقيقة إن كثيرا من المفكّرين استحسن هذا الطرح، سعيا لإخراج الخطاب الأخلاقي الجديد من دوائر ضيقة، قد تجعل منه رؤية مذهبية، تنتصر لتوجه معين، لتبتعد تماما عن مشكلات الإنسان الناجمة عن التقدم الذي حدث في ميدان الطب والبيولوجيا، في حين لا تحتاج البشرية إلى مثل هذه المتناقضات، بل تحتاج إلى حكمة تضمن للإنسان جسرا نحو المستقبل، يحفظ فيه بقاءه مع تحسين نوعية الحياة، والقضاء على الكثير من الأمراض،

وكل هذا السعي سيمكّن الخطاب البيوإتيقي في النهاية من التطور، في سياق تصاعدي يمكنه من مسايرة تسارع التقنية، ومن المفكرين الذين سنتناولهم آتيا : " دانيال كالاهان".

ثالثا- الخطاب البيوإتيقي في فلسفة "دانيال كالاهان":

يعدّ " دانيال كالاهان" من الفلاسفة المهمين في شأن تطوير الخطاب البيواتيقي، وبخاصة في جدلها مع الديني، فكانت معالجته متميزة بإضفاء الطابع العلماني على " البيوإتقا"، وفصلها عن الأخلاق الكلاسيكية، في صورتها الأبقراطية التي غرقت فيما بعد في تقاليد اللاهوت المسيحي، لقد ألف الكثير في ميدان " البيوإتيقا" التي تناول فيها قضايا كثيرة من بداية الحياة إلى نهايتها(زيد، 2014، الصفحات 68-69)

وأنشأ " كالاهان" في هذا السياق معهدا متخصصا أطلق عليه اسم "هاستينغز" في نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية The Hastings Center of New York ، وكان معروفا باسم معهد المجتمع، الأخلاق وعلوم الحياة، الذي تأسس في عام 1969وقد أثنى" كالاهان" على هذا المعهد ودوره في انتشار الفكر البيوتيقي والعمل على تطويره، إذ نجده يقول :" في أواخر الستينات من القرن الماضي، عندما ولد مصطلح "البيوإتيقا" لم يكن هناك سوى عدد قليل من الأشخاص يدرسون ويكتبون عن أخلاقيات الطب، ولم يتم صياغة مصطلح " البيوتيقا" إلا بعد ظهور مركز" هاستيغز" سنة 1969، ولم تركز أي مؤسسة أخرى عليه، باستثناء بعض كليات الطب الكاثوليكية وبعض المدارس العلمانية المتناثرة ، حيث عرضت دورات عن آداب مهنة الطب، والآن يوجد في كل كلية طب على الأقل مدرسة واحدة، وصارت "البيوإتيقا" موضوعا يطرح حتى في الجامعات فاكتسب بذلك شهرة واسعة" (Callahan, In Search of the Good A Life in Bioethics, 2012, p. 145)

يذكر " دانيال كلاهان" أنّه في أواخر الستينيات من القرن العشرين أصبح مهتما بالمشاكل الأخلاقية والسياسية الناجمة عن "الثورة البيوتكنولوجية"، إذ ظهرت تكهنات طوباوية حول إعادة تشكيل الطبيعة البشرية، وسيسمح لنا ذلك باختيار الخصائص الجينية لأطفالنا، وإطالة متوسط العمر المتوقع للإنسان بشكل جذري، هنا طرح السؤال: كيف يجب أن نقيّم هذه الاحتمالات أخلاقيا؟ وفي الوقت نفسه كانت الشكاوى تتزايد حول قدرة الطب في إبقائنا على قيد الحياة فترة طويلة وظهرت مخاوف بشأن ارتفاع التكاليف العلاجية، وحول الاستغلال الخاطئ للبشر من أجل البحث العلمي (Callahan, A memoir of an interdisciplinary caree, 2010, p. 410).

فاحتلت " البيوإتيقا" مكانتها الهامة، وإذا ما أردنا البحث عن إجابة للتساؤل عن تلك المكانة فيكفينا الرجوع إلى المشكلات الكثيرة التي يثيرها تقدم الطب والبيولوجيا، والتي تحتاج إلى إجابات أخلاقية، ابتداء من الإجهاض، مرورا بمستحدثات أخرى إلى غاية الإنجاب الاصطناعي، فتصبح المهمة الأولى لعالم الأخلاق هي تحديد وتوضيح تلك المشكلات، مع توفير الوسائل المنهجية للتفكير في قضاياها الشائكة، أما المهمة الصعبة هي مساعدة

الأطباء والعلماء على اتخاذ القرار الصحيح ،وهذا يتطلب استعدادا كبيرا لقبول حقائق الحياة الطبية والبيولوجية (Callahane, 1973, p. 68)، من هنا ستكسب " البيواتيقا" مكانتها في عصر سيطرة التقنية، من خلال اقتحام مجال الطب والبيولوجيا، والوقوف على مشكلات الطب والبيولوجيا، اكتشافها ثم توضيحها، وإتاحة فرصة التفكير العقلاني فيها، ثم المساعدة على حلها.

إنها المكانة التي ستأخذ منها "البيواتيقا" أحد أهداف الأخلاق التقليدية، وهو عيش حياة جيّدة ،ويجب أن تستحق هذه الحياة التي نعيشها ذلك، لهذا عليها تنمية مختلف الفضائل اللّازمة من أجل الوصول إلى هذه الغاية، في ظلّ تطوّر الطب والبيولوجيا، يجب عليها مساعدة الناس في كيفية اتخاذ القرارات الصحيحة والجيدة، وتبعا لذلك عليها تنمية قدراتها للعمل في مجال بيئة الطب الحيوي، وإذا سعت الأخلاق إلى جانب الفلسفة السياسية إلى اكتشاف ماهية المجتمع الصالح، فيجب أن تسعى " البيواتيقا" إلى تحديد أي من التطورات العلمية يساهم بشكل مثالي في تحقيق هذا الهدف (Callahan, Bioethics and Beyond, 1999, p. 276)، وستسعى بذلك فعلا إلى بناء جسر نحو المستقبل، وإذا ما قامت " البيواتيقا" بتنمية قدراتها، وتطوير نفسها بشكل كبير للعمل في بيئة الطب والبيولوجيا، وهي المتميزة بالتعقيد وكثرة المشكلات، مع تعددها، سيكون ذلك الجسر قويا بما فيها الكفاية، لتكون الحياة التي تعيشها البشرية جيدة، ويكون المجتمع صالحا بالمعنى المعاصر للكلمة.

وفي طريقها لتحقيق هذه الأهداف ستكون " البيواتيقا" خطابا شاملا، يضم كل شرائح المجتمع ويبدو أن هذا الهدف سعى إليه " كالاهان" منذ تأسيسه لمركز " هاستينغز" إذ نجده يقول:" كان هدفنا في مركز هاستينغز هو جذب الجمهور من الأطباء والعلماء والأكاديميين في العلوم الإنسانية والاجتماعية والجمهور المتعلم...أردنا بحثا قائما على أسس جيدة ومثيرة للاهتمام، ومتاح للجميع" (Callahan, In Search of the Good A Life in Bioethics, 2012, p. 147) ، ويبدو أن تفكير" كالاهان" في إبعاد " البيواتيقا" عن أي تفكير إيديولوجي، بدأ منذ اهتمامه بهذا الخطاب الذي تمركز حول إنشاء مركز متخصص في هذا المجال.

لهذا كان " كالاهان" دائما يدعو إلى إبعاد " البيواتيقا" عن كل إيديولوجية ممكنة، واشتهر في هذا السياق قوله أن أول ما ينبغي على الأشخاص المعنيين بـ"البيواتيقا" وضع الدين جانبا، ومع بداية اهتمامه بالخطاب الاخلاقي الجديد يذكر " كالاهان": أنّ الموارد الوحيدة التي كانت موجودة في هذا السياق لاهوتيةّ، والمواد الأساسية مستمدة من تقاليد الطب التي شكلها الدين بصورة كبيرة، لكن "البيواتيقا" المعاصرة كما يؤكد ،قامت على العلمانية، بسبب تراجع دور الخطاب الديني في تطوير الأخلاقيات الحيوية، خاصة بعد النهضة التي عرفتها أخلاقيات الطب وعجز المواضيع الكلاسيكية عن معالجة المشكلات الجديدة التي عرفها الطب، فأصبحت مساهمات اللاهوتيين في هذا السياق بعيدا عن قناعاتهم وتقاليدهم الدينية(Childress, 2003, p. 45)ومن هذا نفهم عدم جدوى الممارسة الدينية داخل حقول الأخلاق الحيوية.

وقد أكّد" كالاهان" على حاجة " البيواتيقا" إلى هذا التوجه العلماني يقول:" لقد كانت البيواتيقا الجديدة بحاجة إلى إيجاد طريقة للتحدث بثقافة علمانية، بالاعتماد على المقدمات غير الدينية وتضمين نطاق أوسع بكثير من ربط القضايا الدينية، ومشكلات التقنية الحيوية بالعلاقة بين الطبيب والمريض" (Callahan, Individual Good and Common Good: A Communitarian Approach to Bioethics, 2003, p. 497)، والعلاقة بين الطبيب والمريض في إشارة إلى التعاليم الأبقراطية، التي احتضنتها الكنيسة، التي بموجبها أعطت سلطة أبوية للطبيب.

لابد أن تكون "البيواتيقا" خطابا للجميع، لا ترتبط بقضية معينة أو شخص ما أو توجه معين فالبيواتيقا في بدايتها ركزت على قضايا مثل حماية الأشخاص، وحقوق المرضى، والإجهاض، وقضايا الإنجاب، مركزة على حقوق الفرد، واستقلالية المريض، فأصبحت الفردية الليبرالية هي الأيديولوجية السائدة، ولكن في حقيقة الأمر لا يجب أن نربط البيواتيقا بقضايا خاصة، بل بالمجتمع ككل، ذلك أن هناك العديد من قضايا الأخلاقيات الحيوية لا يمكن حصرها في المسائل الفردية، بل من الضروري أن تمس المجتمع ككل، وقيمه، ومؤسساته المختلفة؛ لأن الإنسان بطبعه كائن اجتماعي (Callahan, Individual Good and Common Good: A Communitarian Approach to Bioethics, 2003, p. 496)

والتعددية الاجتماعية آمن بها " كالاهان" كثيرا، ودفعته في مناقشاته حول الأخلاق الحيوية إلى تحاشي الطابع الديني تماما، والذي يبدو أنه لم يعد في حاجة إليه، من أجل التأسيس الشامل والعقلاني للبيواتيقا يقول: "إن الفلسفة بتكريسها التاريخي لإيجاد أساس عقلاني للأخلاق، كانت مناسبة تماما للبيواتيقا، ولا سيما في مجتمع يتميز بالتعددية، وقد وجدت أنني لست بحاجة إلى الدين في حياتي الشخصية، فلماذا يحتاج الطب الحيوي إليه"(Callahan, Religion and the Secularization of Bioethics, 1990, p. 2)

هذه التعددية في النهاية، ستوسع مجال " البيواتيقا" لتكون أكثر شمولية، وقد ذكر "كالاهان" بعضا من ممارسات البيواتيقا داخل حقول معرفية متعددة، وانطلاقا منها ذكر أنواعا لها من بينها:

- بيواتيقا سريرية.
- بيواتيقا تأسيسية.
- بيواتيقا تنظيمية.
- بيواتيقا ثقافية.
- بيواتيقا السياسة الصحية. (Howard, 2009, p. 06)

انطلاقا من هذا الطرح ستغزو البيواتيقا مجالات عديدة، وداخل المجال الواحد ستتخصص بالأصول والفروع، بيواتيقا تنطلق من بداية الحياة إلى نهايتها، وتشمل كل شرائح المجتمع ولا تضم الأخلاقيين فقط، بل الأطباء، وعلماء الاجتماع، وحتى المحامين

ورجال القانون، ورجال الدين كذلك، والشـــرط الوحيد لهذا الدخول هو ترك المعتقدات جانبا، لئلا تكون منطلقا يدخل البيواتيقا في متاهات التعصـب، مما يخرجها من مجال حل مشـكلات الإنسان إلى زيادة مشكلاته.

تعقيب

القارئ لما يكتب " كالاهان" في هذا السـياق؛ يتسـاءل: هل فعلا الدين سـيعرقل تطور الخطاب البيواتيقي؟ أو يحصره في مجال ضيق؟ ولماذا هذا الاقصاء، لابد من الإشارة إلى أن أصول الخطاب البيواتيقي التي لا يمكن التخلي عنها كانت دينية خالصة، فقد لعب الدين دورا كبيرا في انتشار هذا الخطاب، ووصوله إلى مختلف شرائح المجتمع، باعتبار أن المقدس أكثر وقعا على النفوس، بل إنّ " كالاهان" نفســه ورغم ســعيه إلى إقامة الخطاب البيواتيقي على أســاس علماني، إلى أنه أكد مرارا أن تراجع الخطاب الديني كان له أثر ســلبي في ما يخص انتشـار "البيواتيقا" وقوتها، فقد نقل عنه قوله: " إن تراجع المسـاهمات الدينية في البيواتيقا ســوء حظ، أدّى إلى ندرة المفاهيم، وخيال ضــعيف، وجهل بالتقاليد والممارســات، وأشــكال التحليل الأخلاقي للعظماء"(Barbara Maier, 2011, p. 121).

لماذا هذا التناقض في الطرح، فمن المعروف وكما تم ذكره في التحليل أن " دانيال كالاهان" طلب من المتخصـصـين في مجال " البيواتيقا" ترك الدين " جانبا" الترك الذي فسـر على أنه عدم وضع معتقداتهم في الواجهة، وعدم جعل إيمانهم منطلقا لمبرراتهم، فالخطاب يقع على المستوى العقلاني الإنساني، في الوقت الذي يؤكد فيه " كالاهان" أن تراجع الخطاب الديني نتج عنه سلبيات كثيرة.

وفي الوقت ذاته ، لقد تم الرجوع إلى الدين وإلى القضــايا الدينية بقوة منذ أواخر الثمانينيات، بل كان الدين منطلقا هاما في التأسيس لكثير من الحوارات البيواتيقية، خاصة تحت تأثير ضغوطات الممارسة الاقتصادية التي طغت عليها المادية المفرطة التي غزت جميع الحقول، بما فيها الطب، إذ صــارت العلاقة بين المريض والطبيب علاقة مادية، لهذا بحث المهتمون على الجوانب الروحية لمثل هذه الخطابات، إضافة إلى اهتمام رجال الدين بقضايا "البيواتيقا" والمشــكلات التي أفرزها التقدم الكبير في ميدان التكنولوجيا الحيوية، فأنشــأت مجالس دينية، وتشــكيلات فقهية تشــبه إلى حد كبير اللجان الأخلاقية التي عرفها الخطاب البيواتيقي في أوربا وأمريكا(زيد، 2014، الصفحات 76-77).

وبهذا صـار الدين شـريكا لا غنى عنه في مجال الأخلاق الحيوية لأي مجتمع يهدف إلى دمج الرعاية الصحية، والبحوث المتعلقة بالطب في مؤسسات تخدم العدالة، والصالح العام، إنه خطاب يدعم مصــالح الفقراء، من خلال انتقاده الطرق التي أصــبح بها الطب الحيوي، والبيوتكنولوجيا سلعة فاخرة يتم تسويقها للطبقات، ذات الامتياز الاقتصادي، إن "البيواتيقا" اللاهوتية تدعو إلى سـياسـات صـحيّة أكثر عدالة ورحمة، من خلال حشـد رجال الدين لرعاية مصالح الفقراء(Cahil, 2006, p. 55)

ولا يجب أن ننسى دائما أن " البيواتيقا" تدين في أصولها إلى كثير من المناقشات الدينية حول قضايا مثل القتل الرحيم، وزراعة الأعضاء، وتوزيع موارد الرعاية الصحية، والإخصاب الاصطناعي، إن هذه القضايا تستشهد فيها البيواتيقا بالعمل الكبير الذي قدمه علماء اللاهوت، أمثال: " بول رامسي" Paul Ramsey (1913-1988)و "ريتشار ماكورميك" Richard McCormick (1922-2000) وغيرهم(Gregory, 2009, p. 46)

خاتمة

لقد احتاج الخطاب الأخلاقي إلى تجديد نفسه من أجل اللحاق بالتسارع الكبير الذي تتقدم به التقنية، لتظهر " البيواتيقا" التي احتاجت كذلك إلى تطوير نفسها من أجل الإحاطة بمجالات عديدة ،وضم شرائح مختلفة من المجتمع، لتكون حقلا متعدد الاختصاصات، لا يريد لنفسه أن يعيش في رواق ضيق، يتتبع توجها معينا، أو عقيدة ما، هذا الهدف جعل " كالاهان" يؤكد على ضرورة إبعاد الخطاب البيواتيقي عن كل ممار سة دينية، فلا بد من التأ سيس لحوار علماني عقلاني، يتيح أن يكون شاملا، يوجه للجميع دون استثناء أشخاص، ولم يطالب هذا لفيلسوف بإقصاء الدين تماما بل تركه جانبا، مما يعني أن لرجال الدين الحق في المشاركة في النقاش المتعلق بقضايا الأخلاق الحيوية، ولكن دون المنطلقات الاعتقادية، ذلك أن " كالاهان" اعترف بتأثير ابتعاد المساهمات الدينية عن الخطاب البيواتيقي، الذي افتقر فيما بعد للغة الخطاب، التي تلمس النفوس، والتي تستطيع التوغل إلى أبسط شرائح المجتمع، لكن التعددية الاجتماعية دعت إلى ضرورة ألا يطغى الخطاب الديني؛ لأن الكنيسة الكاثوليكية عندما احتضنت الأخلاق الطبية الكلا سيكية، وأعطت سلطة أبوية للطبيب، خلف ذلك مجموعة من المشكلات التي أباحت التجارب على البشر والتي انتهت بضرورة التخلي عن هذه الأخلاق التي عجزت عن معالجة مشكلات الإنسان.

وللتذكير فقط: لا ينبغي أن يعتقد أن نظرة " كالاهان" للدين كانت نظرة ازدراء أو إقصاء، بل هي نظرة محترمة، أكد فيها على دور الدين بمبادئه في دعم الخطاب البيواتيقي، ولكن و ضعه جانبا كان ضرورة ملحة، في مجتمع يؤمن بالتعددية، حتى لا يكون هذا الخطاب مصدرا لصراعات أو خلافات بين مختلف التوجهات، وحتى يتجه إلى معالجة مشكلات الإنسان، و كأني به يقول: كن متدينا، ذلك شأنك، لكن لا يجب أن يكون تدينك منطلقا في التأسيس لأخلاق تريد أن تواجه خطر التقدم العلمي والتكنولوجي، فينظر إلى الحوار المثمر الذي يجد الحلول لما تتخبط فيه البشرية من تهديدات، لا منطلقات الحوار وأشخاصه، وبهذا تتاح فرصة عقلانية لمشاركة الجميع في الحوار البيواتيقي.

قائمة المراجع باللغة العربية

1. أحمد محمد صبحي، محمود فهمي زيدان .(1993) .*في فلسفة الطب*. بيروت: دار النهضة العربية.
2. البقصمي، ن .(1993) .*الهندسة الوراثية والأخلاق*. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
3. جديدي، م .(2020) .*ما البيواتيقا*. الجزائر : الوطن اليوم.
4. زيد، ع. ع .(2014) .*البيوتيقا والفلسفة والقانون* In .ع. ع. المحمداوي ,.(Ed) *البيوتيقا والمهمة الفلسفية* .(pp. 43-84) العراق: الرابطة العربية الأكاديمية للفلسفة.

5. غي دوران .(2015) .*البيواتيقا: الطبيعة، المبادئ، الرهانات، تر: محمد جديدي*،) المجلد 1 .(لبنان: جداول.

قائمة المراجع باللغة الأجنبية

1. Barbara Maier, W. A. (2011). *The Philosophy and Practice of Medicine and Bioethics A Naturalistic-Humanistic Approach.* New York: Springer.
2. Cahil, L. S. (2006). *Theology's Role in Public Bioethics*. In D. e. Guinn, *Handbook of Bioethics and Religion* (pp. 37-56). New York: Oxford University Press.
3. Callahan, D. (1990). *Religion and the Secularization of Bioethics. The Hastings Center, 20*(4), 2-4.
4. Callahan, D. (1999). *The Social Sciences and the Task of Bioethics*. *Daedalus, 128*(4), 275-294.
5. Callahan, D. (2003). *Individual Good and Common Good*: A Communitarian Approach to Bioethics. *Biology and Medicine, 46*(4), 496-507.
6. Callahan, D. (2010). *A memoir of an interdisciplinary caree*. In F. Robert, & F. Robert (Ed.), *The Oxford Handbook of Interdisciplinarity* (Vol. 1, pp. 419-428). New York: Oxford University Press.
7. Callahan, D. (2012). *In Search of the Good A Life in Bioethics.* London, England: The MIT Press Cambridge, Massachusetts,.
8. Callahane, D. (1973). *Bioethics as a Disciplin.The Hastings Center Studies, 1*(1), 66-73.
9. Childress, J. F. (2003). *Religion, Theology, and Bioethics, Myths of the Role of Religion in the Origin of Bioethics*. In F. G. Miller, *Perspectives, The Nature And Prospect Of Bioethics Interdisciplinary* (pp. 43-67). USA: Humana Press In.
10. Gregory, E. (2009). *Religion and Bioethics*. In H. K. Singer, *A Companion to Bioethics,* (pp. 46-55). United Kingdom: Blackwell Publishing Ltd.
11. Have, H. t. (2016). *Global Bioethics, An introduction.* New York: Routledge.
12. Howard, B. (2009). *The Future of Bioethics.* New York: Oxford University Press, Inc.
13. Langavant, G. C. (2001). *Bioéthique : méthode et complexité.* Canada: Presses de l'Université du Québec.
14. Potter, V. R. (1971). *Bioethics Bridge To Future.* USA: Prentice-Hall.
15. Potter, V. R. (1988). *Global Bioethics* . U.S.A: Michigan State University Press.